مجلة العلوم الاجتماعية
المجلد 15 / العـدد 02 / سبتمبر2021 / ص ص 467 - 475
Journal home page: http://journals.lagh-univ.dz/index.php/ssj
ASJP: https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/305

اكتساب اللغة من المنظور الخلدوني

Language acquisition from the Khaldunian perspective

البشير بلحماري [1] ، كمال عويسي [2]

1 مخبر التمكين الاجتماعي والتنمية المستدامة في البيئة الصحراوية - المركز الجامعي أفلو (الجزائر) ، b.belhemari@cu-aflou.edu.dz

2 مخبر الجنوب الجزائري للبحث في التاريخ والحضارة الإسلامية - جامعة غرداية (غرداية الجزائر) ، aouissi.kamel@univ-ghardaia.dz

تاريخ الاستلام: 2021/06/06 تاريخ القبول: 2021/09/18 تاريخ النشر: 2021/09/30

ملخص:

تعتبر اللغة أساس أي مجتمع وقوام كيانه التاريخي والثقافي والحضاري ،فهي أبرز دعائم التكوين للمجتمعات ولا يقتصر دورها في التخاطب والاتصال بين أفراد المجتمع فحسب، بل تعتبر خزان لأفكار المجتمع، فبواسطتها تحفظ تراثه العلمي والحضاري وينتقل من جيل إلى جيل لهذا حرص العديد من العلماء لإبراز أهميتها في المجتمع ولعل أبرز هؤلاء العالم المسلم عبد الرحمن ابن خلدون والذي سنحاول ضمن هذه الورقة تسليط الضوء على أهم جهوده في المسألة اللغوية وذلك بتعريف اللغة من المنظور الخلدوني وطريقة اكتسابها والمنهج المعتمد من طرف ابن خلدون في تطويرها.

كلمات مفتاحية: الملكة اللّغويّة، عبد الرحمن ابن خلدون، تعلم اللغة.

ABSTRACT:

Language is the basis of any society and the strength of its historical, cultural and civilizational entity. It is the most important Props of training for societies, and its role is not just to communication and communication between members of society, but rather is a reservoir of the ideas of society. To highlight its importance in society, perhaps the most prominent of these Muslim scholars is Abd al-Rahman Ibn Khaldun, who within this paper we will try to shed light on his most important efforts in the linguistic issue by defining the language from the Khalduni perspective, the method of its acquisition, and the method adopted by Ibn Khaldun in its development.

Keywords: linguistic competence, Ibn Khaldoun, Language learning.

- المؤلف المرسل: كمال عويسي

ISSN: 1112 - 6752 | رقم الإيداع القانوني: 66 - 2006 | EISSN: 2602 - 6090

1- مقدمة:

تعتبر اللغة من أهم مقومات المجتمع ودعائمه وهذا مما دفع العديد من علماء الاجتماع والنفس والمختصين في علم اللغة الاجتماعي إلى الاهتمام بها والعمل على تطويرها و إبراز مدى تأثيرها على بنية المجتمع ،وهذا باعتبارها العامل الوحيد الذي يميز بني البشر على سائر المخلوقات الأخرى بما فيها الحيوانات فاستخدام اللغة هي التي تؤهل الإنسان التميز على باقي الكائنات الحية الأخرى وليس مقدرته على التفكير و مواهبه الذكية وهذا ما يعرف بمصطلح Homo-Species والذي يقصد به النوع الإنساني بوصفه كائنا حيا(جون ليونر، 1985،ص.17).

لا يختلف إثنان أن اللغة وسيلة هامة في تحقيق التواصل بين أفراد المجتمع ،ولهذا يتضح جليا مدى ارتباطا هذا الأخير بها ،كون واقع وجود اللغة مرهون بمن يستخدمها ويتواصل بها مع غيره فاللغة يلجأ إليها الفرد لترجمة أفكاره و حاجياته كما أنه لا يقوى على الاستغناء عنها ،كونها تجسد كيان المجتمع وهويته وهذا ما جعل اللغة والمجتمع كالجسد والروح، كل يكمل الآخر ولا أحد بمقدروه الاستغناء عن الآخر ولا ينفصل عنه .

ضمن هذا السياق يتضح جليا الدور الهام للغة كإحدى القوى التي ساعدت الكائنات الإنسانية على الخروج من العالم الحيواني والانتماء في جماعات وتطور القدرة على التفكير وتنظيم الحياة الاجتماعية وتحقيق درجة التقدم التي عليها الإنسان اليوم،كون الكلام يفتح العالم المغلق في حياتنا الداخلية ويسمح لنا بالخروج عنه ومن هذا المنطلق أصبح حريّ على النخبة أن يعكفوا على دراسة اللغة وتطورها إذ لا يمكن فهم الطبيعة الإنسانية خارج الحقل اللغوي.(علي بلي،2017،ص. 15)وقد أكد هذه الحقيقة براترند راسل بقوله:" إنني أظن أن المعنى لا يمكن أن يفهم إذا عالجنا اللغة على أساس أنها عادة جسمية والميدان الصحيح لعلم اللغة هو دراسة ما يقوله الناس،وما يسمعونه وسط المحيط والتجارب التي يعملون فيها الأشياء"(محمد أحمد أبو فرج ،1966،ص.28)

إن هذا الارتباط بين اللغة والإنسان يقودنا إلى الجزم يقينا أن اللغة من كيان الإنسان فلا إنسانية بدون لغة (محمد الحبابي،1980،ص.11)،ولعل المتتبع في التاريخ يجد أن عدد لا يستهان به من العرب الذين ساهموا وبشكل فعال في بسط خصائص اللغة واتجهوا وجهة تاريخية وصفية استعراضية في كشف مقومات العلم اللغوي القديم لينتهوا إلى إبراز الفوارق النوعية والمقابلات المبدئية مما تتجلى به المعطيات اللسانية فتتميز بالمفهوم الفيلولوجي للمعرفة اللغوية،ومن بين أهم هؤلاء العلماء نجد العلامة المسلم عبد الرحمن ابن خلدون الذي أشار في الباب الرابع من مؤلفه الموسوم بـ"المقدمة" إلى لغات أهل الأمصار حيث جاء حديثه في صيغة قانون عمراني فحواه أن غلبة اللغة بغلبة أهلها وأن منزلتها بين اللغات صورة لمنزلة دولتها بين الأمم وقد قام ابن خلدون بتصنيف العلوم إلى:علوم حكمية فلسفية، وعلوم نقلية وضعية وأكد أن التعليم ضرورة من ضرورات العمران وأنه لا يحصل إلا بحصول ملكة التعلم.

وإذا كانت الموضوعات الفكرية والتاريخية والسياسية والاجتماعية قد حظيت بقسط وافر من التحليل والدراسة من لدن الباحثين والدارسين لفكر ابن خلدون سواء العرب أو المستشرقين، فإن موضوع اللغة عند ابن خلدون لم ينل الاهتمام نفسه، بالرغم من أهمية الأفكار الواردة في"المقدمة" وذلك بالنظر إلى قوتها وتماسكها المنطقي وكذا بالنظر إلى تميزها وهذا ما يدفعنا إلى التساؤل عن اللغة في فكر ابن خلدون،من خلال الأسئلة التالية:

- ما مفهوم اللغة عن ابن خلدون؟
- ما مفهوم الملكة عند ابن خلدون؟
- ما هو المنهج الذي يقترحه ابن خلدون من أجل اكتساب اللغة؟

- ما العوامل التي أشار إليها ابن خلدون والتي من شأنها أن تعجل في انحطاط اللغة؟

سنحاول ضمن هذه الورقة البحثية الإجابة عن هذه الأسئلة المطروحة وذلك بالاستعانة بوجه خاص بالمقدمة، إلى جانب بعض الدراسات التي تناولت هذا الموضوع.

2- ابن خلدون نشأته وثقافته:

هو عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون أبو زيد ولي الدين الحضرمي الإشبيلي ،ولد بتونس عام 1332م حفظ القرآن بالقراءات السبع،كما حفظ الشعر،وتمكن من البلاغة والصرف والأدب،(محمد العبد،1979،ص .12) وقد كان أهله أصحاب سياسة ومكانة اجتماعية مرموقة في دولة الحفصيين(عبد الرحمن بن خلدون، دتا، ص.08)، وقد ذكر لسان الدين الخطيب(ابن الخطيب،دتا،ص.503) أن لابن خلدون مجموعة من المؤلفات من أشهرها:"المقدمة " و "شرح البردة" و "الحساب" و "رسالة في المنطق" و "شفاء السائل لتهذيب المسائل"واشتهر من بين المؤلفات السابقة بـ(المقدمة)التي تعد من بين أبرز المنتجات العلمية التي يفتخر بها المسلمين لما تضمنته من مباحث مبتكرة في علم الاجتماع، والتاريخ، والسياسة، واللغة، والأدب،والتربية، وأسلوب الكتابة العربية،وعرض كلّ ما سبق ذكره من مباحث بأسلوب يرفعه من"منزلة المكتفي برواية الأخبار والأحداث إلى مرتبة المفكّر الذي ينفذ إلى ما هو حاسم في سير الأمور وتطورها. (عبد القادر المهيري ،1993،ص.148)ولقد عين ابن خلدون في عدة مناصب سياسية و إدارية حيث تولى القضاء لستة مرات إلى ان توفى في 25 رمضان سنة 808هـ الموافق لـ 15 مارس 1406م(طه حسين،1925،ص.23)

3- اللغة في نظر ابن خلدون: مفهومها ودلالاتها:

تعددت التعاريف بخصوص اللغة بتعدد منظريها و معارفهم حيث منهم من ركز على خصائصها والآخر على أهميتها وبعضهم على دورها في إيصال الأفكار وترجمة المواقف والسلوكيات ومن هؤلاء نجد ابن منظور الذي يعرف اللغة بكونها:"اللغة من الأسماء الناقصة وأصلها لغوة وقيل لغا يلغو ولغا فلان عن الصواب وعن الطريق إذا مال عنه واللغو النطق يقال هذه لغتهم التي يلغون بها أي ينطقون بها"(ابن منظور، 2004،ص.526) أما السيوطي فيعرفها بأنها كل لفظ وضع لمعنى. (جلال الدين السيوطي ،دتا،ص.8)

أما دي سوسير فيعرفها :نتاجٌ اجتماعيٌّ لمَلَكة اللسان ومجموعة من التقاليد الضرورية التي تبنَّاها مجتمعٌ ما، ليساعد أفراده على ممارسة هذه المَلَكة(فردينان دي سوسير، 1985،ص.27) أما ابن جني فقد عرفها تعريفا علميا بقوله :"أما حدها فإنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم. (ابن جني، 1952،ص.33)،

أما بخصوص اللغة عند ابن خلدون فقد وظفها هذا الأخير في مقدمته ضمن مصطلحين "لغة" و"لسان" معا للدلالة على المفهوم ذاته: فقد نجد في المقدمة كلا المعنيين ويستخدمهما للدلالة عن اللغة مثال ذلك عند حديثة عن ترجمة العلوم إلى العربية:" أصبحت العلوم كلها بلغة العرب،ودواوينهم المسطرة بخطهم،واحتاج القائمون بالعلوم إلى معرفة الدلالات اللفظية والخطية في لسانهم دون ما سواه من الألسن لدروسها وذهاب العنايه بها"(عبد الرحمن بن خلدون، دتا، ص.564) ولهذا نجد ابن خلدون ركز بشكل مباشر في تعريف اللغة وذلك بقوله:" إعلم أن اللغة في المتعارف عليه ،هي عبارة المتكلم عن مقصوده وتلك العبارة فعل لساني ناشئ عن القصد بإفادة الكلام ،فلابد أن تصير ملكة متقررة في العضو الفاعل لها،وهواللسان،وهي في كل أمة بحسب اصطلاحها".(عبد الرحمن بن خلدون، دتا، ص.605)،والمتأمل في هذا التعريف الذي صاغه ابن خلدون بخصوص اللغة يتضح جليا أنه يحمل بين طياته دلالات من بينها أن عبد الرحمن ابن خلدون قد جمع في تعريفه للغة بين طبيعتها لكونها فعل إنساني متولد عن إرادة وتصميم على الكلام،وبين دورها من حيث أنها وسيلة للإتصال وتلبية الحاجات بين أفراد المجتمع الواحد،ولذا

اقتصر مصطلح اللغة على التعبير الصوتي أي بالجهاز النطقي في الانسان على قدرته في التعبير عما يختلج في صدره،مبتعدا عن طرق التعبير الأخرى التي تدخل في مفهوم اللغة الإشارية وهي التي يقصد بها اللغة التي تستعمل فيها الإماءات وحركات الجسد والتحديق وغيرها"(عبابنة يحيى وآمنة الزعبي، 2005،ص.7)

وقد أضاف ابن خلدون على مصطلح اللّغة كلمة علم فسمّاه علم اللّغة، وفي سياق تفسيره لها في مقدمته يتضح لنا بأنها تشمل علم المعاجم على تنوعها سواء كانت متصلة بجمع الألفاظ اللّغوية عامة أم بجمع الألفاظ المندرجة تحت موضوع واحد، أم كانت متصلة بالمترادف والدخيل والمشترك(عبد علي الراجحي، 1972،ص.37).يقول عبد الرحمن ابن خلدون في مقدمته عن علم اللّغة:" بيان الموضوعات اللّغوية وذلك لما فسدت ملكة اللّسان العربي في الحركات المسماة عند أهل النّحو بالإعراب واستنبطت القوانين لحفظها كما قلناه ،ثمّ استمر ذلك الفساد بملامسة العجم و مخالطتهم حتّى تأدى الفساد إلى موضوعات الألفاظ، فاستعمل كثير من كلام العرب في غير موضوعه عندهم ميلا مع هجنة المتعربين في إصلاحاتهم المخالفة لصريح العربية فاحتاج إلى حفظ الموضوعات اللّغوية بالكتاب والتدوين خشية الدروس وما ينشأ عنه من الجهل بالقرآن والحديث، فشمّر كثير من أئمة اللّسان لذلك وأملوا فيه الدواوين".(عبد الرحمن بن خلدون، دتا، ص.547)

في هذا السياق نجد ابن خلدون في المقدمة يعبر عن القصد وذلك بقوله " فلغة أهل المشرق متباينة بعض الشيء للّغة أهل المغرب، وكذا أهل الأندلس معها وكل منهم متواصل بلغته إلى تأدية مقصوده و الإبانة عما في نفسه، وهذا معنى اللّسان واللّغة. (عبد الرحمن بن خلدون، دتا، ص.555)

وفي هذا القول لا يفرق ابن خلدون بين اللّسان واللّغة بل يوردهما على أنهما مترادفان في مواطن عدة "هكذا نجده يتحدث أحيانا عن ملكة اللّسان العربي وأحيانا عن ملكة اللّغة العربية، كما نجده وهو يقارن بين اللّغات العربية يستعمل في نفس السياق عبارات: اللّسان المصري واللّسان الحميري واللّغة المصرية واللّغة الحميرية. (عبد القادر المهيري،1993،ص.183)

ولعل ما نستخلصه هو أن عبد الرحمن ابن خلدون قد دعم تعريفه للغة بأهم المسائل التي تقوم أهم النظريات الحديثة فاللغة وسيلة تواصل في خدمة الانسان يعبر بواسطتها عن آرائه وحاجياته وتقوم على إصلاح ضمني في المجتمع الذي يتكلمها(باسم يوسف البديرات،2007،ص.41)

ولعل أهمية دراسة اللغة قد تجسد في عاملين وهما:

- النظر في وظيفة اللغة في عملية الاتصال ودور اللغة في المجتمع.
- النظر في وظيفة اللغة في الأدب ومسألة وجود اللغة ومستوياتها من منطلق وظيفي.

كما يتجلى لنا أيضا أن عبد الرحمن ابن خلدون قد نظر إلى اللغة على أنها نشاط اجتماعي من حيث أنها استجابة ضرورية لحاجة الاتصال بين الناس جميعا وبذلك يكون عبد الرحمن أبن خلدون من أوائل الذين أرسوا قواعد الاتصال بين علم اللغة وبين علم الاجتماع فنشأ علما قائما بذاته حديثا في مناهجه يسمى بـ علم الاجتماع اللغوي ويقوم هذا العلم على أساس دراسة اللغة من خلال تفاعلها مع محيطها، ويتمثل هذا البعد في النظر إلى العوامل الخارجية التي تؤثر في استعمالنا للغة(الموسى نهاد، 1987،ص.92)

4- تعلم اللغة وطرق اكتسابها: مقاربة خلدونية

من الجدير بالذكر أن العرب الخلص لم يستعملوا كلمة لغة في أحاديثهم وإنما كانوا على غرار الشعوب السامية وغالبية الأمم فقد كانوا يستعملون كلمة لسان للدلالة على اللغة وقد أشار القرآن الكريم في أكثر من موضع (ظاظا، 1990،ص.120) كقوله تعالى:﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ (سورة

النحل،الأية 103)،﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ (سورة إبراهيم،الأية 4)، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾(سورة الروم،الأية 22)،كما تشير العديد من الدراسات أن للغة دور مهم خاصة في ترجمة الأفراد لمشاعرهم وإيصال أفكارهم للآخرين فاللغة ضمن هذا الطرح تعد وسيلة للتفاهم بين أفراد المجتمع، وآلية لا يستغني عنها في التعامل الأفراد بينهم ومع هذا فهي ليست غريزية كما يعتقد بعض الباحثين فهي تحتاج إلى الاكتساب لتلبية عمليات التواصل بين أفراد المجتمع فبدونها لا يمكن للإنسان التفكير أو التعبير عن عواطفه ومشاعره (السعران محمود ،1997،ص.10)،غير أنه ضمن هذا السياق فإن لغة الأم للفرد لا تحتاج إلى تعليم مركز و خاص ،وقد استدعت هذه القضية انتباه ابن خلدون، وتعود أهمية دراستها عنده إلى أن اللغة جزء من المعرفة الإنسانية ودراسة اكتسابها تسلّط الضوء على قضايا اكتساب المعرفة بصورة عامة .ومن أول آرائه التي أدلى بها في هذا الباب أن اللغة ملكة لسانية يكتسبها الإنسان عبر مراحل متعددة، يقول :"إلاّ أن اللغات لما كانت ملكات كما مر،كان تعلمها ممكناً شأن سائر الملكات"(عبد الرحمن بن خلدون، دتا، ص.630)ويقترب تشومسكي من وجهة نظر ابن خلدون الذي نوه بأن اللغة ملكة موجودة في الدماغ حيث ذكر أن ": الدراسة المجردة لحالات ملكة اللغة يجب أن تصوغ خواص تقوم بشرحها نظرية الدماغ ". (محمد العيد ،1979،ص.132)

كما يتجه كل من نعوم تشومسكي مع ابن خلدون أيضاً في أن اللغة تكتسب، وذلك عندما أشار تشومسكي بأن الطفل يولد دون لغة محددة بعينها وسميت هذه الحالة بالحالة الصفرية الأولى،لكن الطفل يمتلك نحواً كونياً أو كلياً يساعده على تعلم أي لغة يتعرض لها، بعد ذلك ينتقل الطفل وهو يكبر، ومن خلال سلسلة من المراحل المتتابعة إلى مرحلة الاستقرار(محمد العيد ،1979،ص.136)، إلا أ ن عملية الاكتساب في نظر "ابن خلدون "تبقى عملية وجدانية، و دليل ذلك قوله: " وهذا أمر وجداني حاصل بممارسة كلام العرب حتى يصير كواحد منهم، ومثاله لو فرضنا صبيا من صبيانهم نشأ و ربّى في جيلهم، فإنه يتعلم لغتهم ويحكم شأن الإعراب والبلاغة فيها حتى يستوي على غايتها"،(ميشال زكريا ،1993،ص.110)وهذا يدل على أنّ الطفل يكتسب لغة البيئة التي ينشأ فيها على حد تعبير ابن خلدون.

وعلى هذا الأساس فإن عبد الرحمن ابن خلدون يعتبر اللغة ملكة صناعية، فيقول:" إعلم أن اللغات ملكات شبيهة بالصناعة، إذ هي ملكات في اللسان للعبارة عن المعاني وجودتها وقصورها بحسب تمام الملكة أو نقصانها "(عبد الرحمن بن خلدون، دتا، ص.434)والملكة عنده تعني المهارة المحتاجة إلى الصقل والتدريب والتكوين، فالملكة صفة راسخة تحصل عن استعمال ذلك الفعل وتكرره مّرة بعد أخرى حتى ترسخ صورته" "(عبد الرحمن بن خلدون، دتا، ص.436)هو التعريف نفسه الذي يستعمله اللغويون والتربويون للملكة اليوم"(عبد الرحمن بن خلدون، دتا، ص.632) ومما لابد من تسجيله هنا هو أن تأكيد ابن خلدون على التكرار وجعله للتعلم مستويات، ثم عدم استثنائه للتعلم اللغوي منها يحيل من جديد على فهمه الواعي بحقيقة أن العبرة القصوى في تعلم لغة من اللغات لا يتوقف عند جهازها المفرداتي على أهميته بل إن التمكن قد يؤكد بدرجة أكبر على جهازها التركيبي الذي حسب ما تقدم هو من أوجه التعبير باللغة عن المقاصد (مسعودة شكور 2013،ص.21) كما يذكر ابن خلدون في مسألة تعلم ملكة اللغة أنها تتم وفق مستويات؛ تبدأ بالفعل ثم الصفة التي تتحول بتكررها حالا وأخيرا بالتكرار يتحول الحال إلى ملكة فالملكات لا تحصل إلا بتكرار الأفعال، لأن الفعل يقع أولا وتعود منه للذات صفة ثم تتكرر فتكون حالا ومعنى الحال أنها صفة غير راسخة ثم يزيد التكرار فتكون ملكة أي صفة راسخة (عبد الرحمن بن خلدون، دتا، ص.636) و يرى ابن خلدون أن الحفظ و التكرار لا يكفيان لامتلاك اللغة بل لا بد من أمر هام و هو الفهم فالفهم أساس في حصول الملكة اللسانية، وهذا ما يتضح في فصل تعليم الولدان واختلاف مذاهب الأمصار الإسلامية في طرقه ، حيث يرجع ابن خلدون حصول الملكة اللغوية للأندلسيين إلى اعتمادهم الفهم إلى جانب الحفظ (عبد الرحمن بن خلدون، دتا، ص.263) ،ويبدو من خلال ما سبق كذلك أن

ابن خلدون قد عالج مسألة اكتساب اللغة عند الإنسان بشكل عام على أسس الدراسات الألسنية الحديثة، وأدرك بعداً آخر من أبعادها .وذلك لأن دراسة اكتساب اللغة تحتلّ أهمية بالغة في إطار الدراسات الألسنية الحديثة، وتندرج هذه المسألة في مجال ما عرف بعلم النفس اللغوي أو السيكو السنية "ويهتم مجال السيكو ألسنية، أو علم النفس اللغوي بدراسة قضايا اكتساب وإنتاج الكلام وتفهمه، وتكون السيكو ألسنية مجال بحث واسع ومشترك بين الألسنيين وبين علماء النفس فتبحث في مسائل اكتساب اللغة والأمراض اللغوية وعلاقة اللغة بالفكر والذاكرة(ميشال زكرياء،1993،ص.66)،ولعل موقف ابن خلدون هذا من اكتساب اللغة يقترب بعض الشيء من موقف النظرية التفاعلية؛ التي ترى أن اكتساب اللغة لدى الطفل هو تفاعل معقد بين الصفات البشرية التي ينفرد بها الطفل، والبيئة التي ينمو فيها مشيرة إلى أهمية الدخل اللغوي، لكنه يرى أن ذلك الاكتساب يرسخ بالحفظ والاستعمال حيث يذكر في مقدمته" فتحصل له -الطفل- هذه الملكة بهذا الحفظ والاستعمال، ويزداد بكثرتهما رسوخاً وقوة" عبد الرحمن بن خلدون، دتا، ص.600) أما فيما يخص تعليم اللغة الثانية فيرى ابن خلدون أن ذلك ممكن لكن يشوبه بعض النقص وعدم الكمال مهما بلغت درجة إتقان الإنسان للغة الثانية، يقول ابن خلدون "إن الملكة إذا سبقتها ملكة أخرى في المحل، فلا تحصل إلا ناقصة مخدوشة،" ويمثل ابن خلدون لذلك بقوله "وانظر من تقدم له شيء من العجمة، كيف يكون قاصراً في اللسان العربي أبدا فالأعجمي الذي سبقت له اللغة الفارسية لا يستولي على ملكة اللسان العربي، ولا يزال قاصراً فيه ولو تعلمه وعلمه، وكذلك البربري والرومي والإفرنجي قل أن تجد أحداً منهم محكماً لملكة اللسان العربي، وما ذلك إلا لما سبق إلى ألسنتهم من ملكة اللسان الآخر. (عبد الرحمن بن خلدون، دتا، ص.638)

ويميز ابن خلدون بين ثلاث طرق من طرائق اكتساب الملكة اللسانية،وهي:

4-1- السماع:

تبدأ مراحل النّمو عند الطفل بأن يسمع من الأفراد الذين هم من حوله جملاً لغوية أو عبارات كاملة، فيستبطنها عبارة عبارة، وجملة جملة، ويربط بينها وبين ما يترتب عليها من الأحداث حوله، وتبدأ عملية التحليل اللغوي عند الطفل عندما يتكرر سماعه للكلمات المختلفة في جمل متعددة وعبارات متنوعة، فيقوم عندئذ بعملية اختزان للكلمات ليستخدمها عند الحاجة إليها(عبد التواب رمضان، 1997، ص.99) حيث يقول "إن الإنسان يسمع كلام أهل جيله وأساليبهم في مخاطباتهم وكيفية تعبيرهم عن مقاصدهم، كما يسمع الصبي استعمال المفردات في معانيها، فيلقنها أولاً ثم يسمع التراكيب فيلقنها كذلك، ثم لا يزال سماعه لذلك يتجدد في كل لحظة، ومن كل متكلم واستعماله يتكرر إلى أن يصير ذلك ملكة وصفة راسخة ويكون كأحدهم" (عبد الرحمن بن خلدون، دتا، ص.631)

وفي مرحلة عمرية ونتيجة الاحتكاك مع الكبار وسماعهم تتم عملية اكتساب بعض الجمل، والتي تتكون في معظمها من كلمتين .ونتيجة التواصل والاحتكاك تأتي مرحلة الاكتساب الأخرى حيث يزداد عدد جمل الطفل التي تتألّف من ثلاث كلمات فأكثر . وخلال هذه الفترة تتنوع جمل الطفل من حيث بنيتها التركيبية فنجد بينها الجمل البسيطة، والجمل المركبة، والجمل المعقّدة. (الفارع شحدة، 2000،ص. 217)

4-2- الممارسة والتكرار:

أكد ابن خلدون في مقدمته أهمية التكرار، واعتياد استعمال كلام العرب في اكتساب الملكة اللسانية، فقال:"إنّما تحصل هذه الملكة بالممارسة والاعتياد والتكرار للكلام"وقد أكد ابن خلدون هذه المسألة في غير موضع من مقدمته فقد ذكر في تعريفه للملكات "أنّها لا تحصل إلاّ بتكرار الأفعال. (عبد الرحمن بن خلدون، دتا، ص.636)

ثم يوضح فيما يخص الملكة "إنّما تحصل بممارسة كلام العرب وتكرره على السمع والتفطن لخواص تراكيبه، ثم يؤكّد على ضرورة مراعاة المدة الزمنية التي تتم فيها عملية المران والممارسة، فهي مسألة تقتضي فترات زمنية مطولة يتم من خلالها محاكاة خواص كلام العرب من الفصاحة والرصانة، وهي عملية تتم بطول المران على ذلك(عبد الرحمن بن خلدون، دتا، ص.640)، وترجع أهمية الممارسة والمران عند ابن خلدون في أنّها تسهل عملية حصول الملكة اللسانية، إذ يقول:"وأيسر طرق هذه الملكة فتق اللسان بالمحاورة والمناظرة، فهو الذي يقرب شأنها ويحصل مرامها"(عبد الرحمن بن خلدون، دتا، ص.636)

فالطفل أو الأعجمي ينشأ في بيئة ما، فتتلقى أذنه التراكيب اللغوية و الكيفيات الكلامية، فيقوم بالتعبير عن مقاصده بواسطة هذه الكيفيات إلى أن يصبح ملكة راسخة فيهم ، فالسمع أبو الملكات اللسانية عند ابن خلدون إذ يقول: " فالمتكلم من العرب حين كانت ملكة اللغة العربية موجودة فيه، يسمع كلام أهل جيله و أساليبهم في مخاطبتهم، وكيفية تعبيرهم عن مقاصدهم، كما يسمع الصبي استعمال المفردات في معانيها فيلقنها أولا، يسمع التراكيب بعدها فيلقنها كذلك، ثم لا يزال سماعهم يتجدد في كل لحظة ومن كل متكلم،و استعماله يتكرر إلى أن يصير ذلك ملكة وصفة راسخة و يكون كأحدهم"(عبد الرحمن بن خلدون، دتا، ص.640)

4-3- الحفظ

إلى جانب الحث على اكتساب اللغة في الصغر يصر ابن خلدون على التكرار الذي جعله لغرض ترسيخ المنوال التعبيري،فحصول ملكة اللسان العربي تكون بـ" كثرة الحفظ من كلام العرب حتى يرتسم في خياله المنوال الذي نسجوا عليه تراكيبهم فينسج هو عليه ويتنزل بذلك منزلة من نشأ معهم"(عبد الرحمن بن خلدون، دتا، ص.640).وقد جعل الذوق السليم هو آخر مراحل تعلم اللغة وهو عنده "حصول ملكة البلاغة للسان[...وهي] مطابقة الكلام للمعنى من جميع وجوهه بخواص تقع للركيب في إفادة ذلك...وهذه الملكة كما تقدم إنما تحصل بممارسة كلام العرب وتكرره على السمع والتفطن لخواص تراكيبه وليست تحصل بمعرفة القوانين العلمية"(عبد الرحمن بن خلدون، دتا، ص.641) و يرى ابن خلدون أن الحفظ و التكرار لا يكفيان لامتلاك اللغة بل لا بد من أمر هام و هو الفهم، فالفهم أساس في حصول الملكة اللسانية، وهذا ما يتضح في فصل تعليم الولدان واختلاف مذاهب الأمصار الإسلامية في طرقه،حيث يرجع ابن خلدون حصول الملكة اللغوية للأندلسيين إلى اعتمادهم الفهم إلى جانب الحفظ "ومع إدراك ابن خلدون لأهمية الحفظ في تحصيل الملكة، غير أنّه يربطها بالفهم والإدراك المسبق لهذا الحفظ، ومحذّراً في الوقت نفسه من الاقتصار على الحفظ من القرآن الكريم، لعدم المقدرة البشرية على احتذاء أسلوبه، فيقول:"فأما أهل أفريقيا والمغرب فأفادهم الاقتصار على القرآن القصور عن ملكة اللسان جملة، وذلك أن القرآن لا تنشأ عنه في الغالب ملكة، لما أن البشر مصروفون لذلك عن الاستعمال على أساليبه، والاحتذاء بها، وليس لهم ملكة في غير أساليبه، فلا يحصل لصاحبه ملكة للسان العربي ونبّه ابن خلدون مرة أخرى إلى أنّ على قدر المحفوظ كماً وكيفاً تأتي الملكة، وبيّن الفرق بين ملكة من يحفظ أشعار العرب الإسلاميين المتقدمين وبين من يحفظ أشعار المتأخرين منهم، إذ قال: «وعلى قدر جودة المحفوظ وطبقته من جنسه وكثرته من قلته، تكون جودة الملكة الحاصلة عنه للحافظ...». وقد اعترف ابن خلدون نفسه بأنه كان يجد صعوبة في نظم الشعر، بسبب كثرة محفوظه من الأشعار العلمية في النحو والفقه والمنطق. (عبد الرحمن بن خلدون، دتا، ص.640)

وأهم نقطة يشير إليها ابن خلدون في المقدمة بل ويؤكد عليها هي أهمية اللغة في تحصيل العلوم، يقول": ...وصارت العلوم الشرعية كلها ملكات في الاستنباط والاستخراج والتنظير والقياس واحتاجت إلى علوم أخرى هي وسائل لها: من معرفة قوانين العربية، وقوانين ذلك الاستنباط والقياس"(محمد العيد،1979،ص.147) ،ويقول أيضا"واللغات إنما هي ترجمان عما في الضمائر

من تلك المعاني يؤديها بعض إلى بعض بالمشافهة في المناظرة والتعليم، وممارسة البحث بالعلوم لتحصيل ملكتها بطول المران على ذلك"(عبد الرحمن بن خلدون، دتا، ص.631)

5- خاتمة:

لا تعد اللغة من الأمور التي يبتكرها فرد معين أو مجموعة من الأفراد،وإنما تتشكل وفق طبيعة الاجتماع،وتنبعث عن الحياة الجمعية وما تحتاجه هذه الأخيرة من تعبير عن الخواطر والمشاعر والأحسايس وتبادل للأفكار،وكل فرد من المجتمع حينما ينشأ في بيئة يجد بين يديه نظاما لغويا يسير عليه مجتمعه،فيتلقاه عنه تلقياً بطريق التعلم والمحاكاة،كما يتلقى عنه سائر النظم الاجتماعية الأخرى،ويصب أصواته في قوالبه.

كما أنه يجدر الاشارة ومن خلال هذه الدراسة أن عبدالرحمن ابن خلدون من أبرز المساهمين العرب في مجال علم الاجتماع اللغوي ولاتقل إسهاماته عن باقي الدراسات الاجتماعية والتاريخية واللسانية الأخرى،ففي أسلوبه المنهجي تتجلى قوة الطرح و الدقة،والتي أصبحت مرجعا هاما للدارسين و الباحثين في الحقل اللغوي ،ولعل من أهم النقاط التي أثارها في مقدمته بخصوص اللغة وتطورها نجد:

- تميز منهج ابن خلدون في دراسته للغة بمنهج عالم الاجتماع الذي لا يقف عند وصف الحقائق وصفاً ظاهرياً تجريدياً، وإنّما هو وصف تحليلي يخضع لكلّ المقاييس العلمية، بداية من إبراز الظاهرة وأسبابها، وتأثيرها في المجتمع، مستخلصا في الأخير النتائج والحلول.
- يعتبر ابن خلدون من أوائل الباحثين العرب الذين أسسوا قواعد سوسيولوجية اللغة باعتبارها ظاهرة اجتماعية كباق الظواهر المجتمعية والمقصود بها نشأتها وتطورها بأسباب مجتمعية و تميزها بخاصية التغير كسائر الظواهر الاجتماعية.
- أدرك ابن خلدون أهمية تحديد المفاهيم وهو عنصر مهم جدا في الدراسات السوسيولوجية الحديثة كمعنى اللغة واللسان في مقدمته.
- يعتبر ابن خلدون اللّغة ظاهرة اجتماعية تنشأ في المجتمع وينشئها المجتمع وهو ما يوافق آراء اللّسانيين المحدثين.
- وبذلك يكون ابن خلدون قد حرص على توضيح العلاقة الموجودة بين اللغة والمجتمع،وهو ما يطلق عليه حديثا بتخصص علم اللغة الاجتماعي أو سوسيولوجيا اللغة الذي يهتم بدراسة هذه العلاقة بين استخدامات اللغة والبنى الاجتماعية في المجتمع.

- قائمة المراجع:

ابن الخطيب،(2003)،الإحاطة في أخبار غرناطة،تح :يوسف الطويل،مج3، لبنان، دار الكتب العلمية.

ابن جني،(1952)،الخصائص ،تح محمد علي النجار،ج1، ط2، لبنان، دار الهدى

ابن منظور، (2004)،لسان العرب، بيروت ،لبنان، دار صادر

السعران محمود: (1997)،اللغة والمجتمع،ط2، القاهرة ،مصر، دار الفكر العربي.

الفارع شحدة،(2000)،مقدمة في اللغويات المعاصرة، الأردن ،دار وائل للنشر

الموسى نهاد،(1987)،نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث،ط3، مصر، دار البشير.

حسن ظاظا،(1990)،اللسان والانسان مدخل إلى معرفة اللغة ،ط2،سوريا،دار القلم

باسم يوسف البديرات،(2007)،الفكر اللغوي عند ابن خلدون في ضوء علم اللغة المعاصر، الأردن، رسالة دكتوراه،قسم اللغة العربية وآدابها،جامعة مؤتة.

جلال الدين السيوطي، (دتا)، المزهر في علوم اللغة،تح: محمد جاد المولى و آخرون،ج2، بيروت، دار الجليل

عبابنة يحيى وآمنة الزعبي،(2005)،علم اللغة المعاصر، الأردن، دار الكتاب الثقافي

عبد التواب رمضان،(1997)،التطور اللغوي مظاهره وعلله، مصر، مكتبة الخانجي

جون ليونر،(1985)،نظرية تشومسكي اللغوية،تر:حلمي خليل ، مصر ،دار المعرفة الجامعية

طه حسين،(1925)،فلسفة ابن خلدون الاجتماعية تحليل ونقد،تر:محمد عبد الله عنان، مصر، مطبعة الاعتماد.

عبد الرحمن ابن خلدون،(دتا)، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر تاريخ ابن خلدون، بيروت،لبنان، دار الفكر للطباعة والنشر،

عبد القادر المهيري: (1993)،نظريات في التراث اللغوي،ط3، بيروت،لبنان، دار الغرب الإسلامي

عبد علي الراجحي،(1972)،فقه اللغة في الكتب العربية، لبنان، دار النهضة العربية

،(2017)،قضايا اللغة في مقدمة ابن خلدون،رسالة ماجستير، السودان،جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا،كلية الدراسات العليا،كلية التربية،قسم اللغة العربية

ميشال زكريا ،(1993)،قضايا ألسنية تطبيقية دراسات لغوية اجتماعية مقارنة تراثية، بيروت،لبنان ،دار العلم للملايين

محمد أحمد أبو فرج،(1966)،المعاجم اللغوية في ضوء دراسات علم اللغة الحديث، بيروت ،لبنان ،دار النهضة العربية للطباعة والنشر

محمد الحبابي،(1980)،تأملات في النحو واللغة، ليبيا-تونس، الدار العربية للكتاب.

محمد العبد،(1979)،الملكة اللسانية في نظر ابن خلدون، القاهرة،مصر، عالم الكتب.

مسعودة شكور،إسهامات ابن خلدون وآراؤه النظرية في تعليمية اللغة،الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والانسانية،العدد 10،جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف، الجزائر ،جوان 2013.

فردينان دي سوسير، (1985)،علم اللغة العام،تر: يوئيل يوسف عزيز، العراق، آفاق عربية